العرب
الإثنين 2021/11/15
السنة 44 العدد 12241

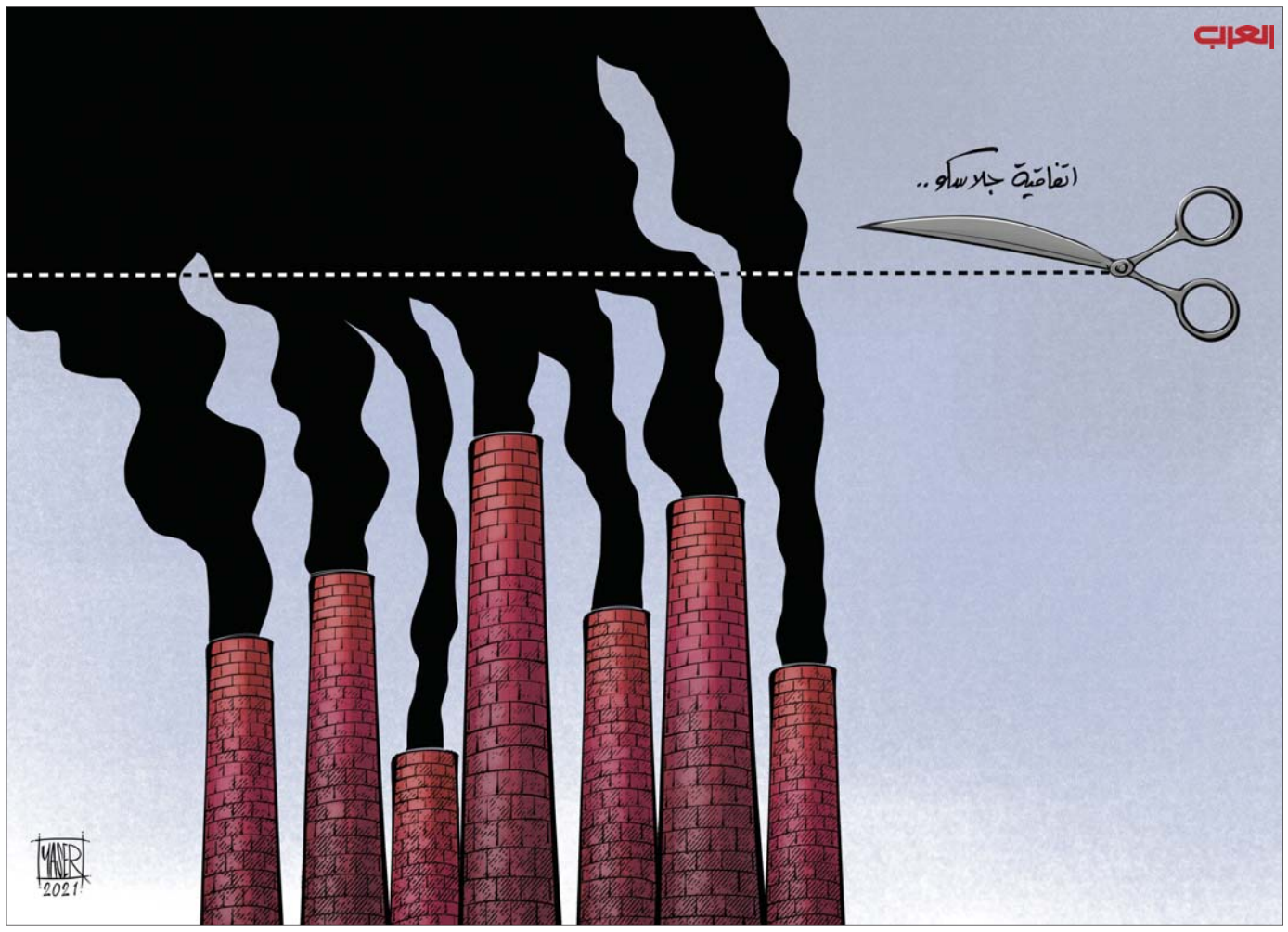

حالة إنكار تتلبس برئيس الحكومة الإثيوبية

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

لم يستفد رئيس الحكومة الإثيوبية آبي أحمد من دروس التاريخ في بلاده والتجارب التي مر بها غيره من القادة والزعماء في أفريقيا، فلا يزال الرجل تتلبسه حالة إنكار للواقع الذي تمر به إثيوبيا، فمع أن خصمه الرئيسي جبهة تحرير تيغراي حققت انتصارات عسكرية لافتة ونجحت في نسج تحالفات واسعة مع قوميات أخرى، غير أنه يصر على تقزيم هذا التفوق وعدم الاعتراف بتداعياته.

ينكر آبي أحمد أن موازين القوى بدأت تبتعد عنه داخليا، ولا يعترف أن الموقف الدولي بدأ ينسحب بعيدا عنه، ويتصرف كأنه يمسك زمام الحل والعقد، مع أن خيوط اللعبة العسكرية والسياسية تسربت أجزاء كبيرة منها من بين يديه تدريجيا، ما منح منافسيه فرصة لزيادة ضغوطهم عليه.

قدم وعودا براقة على مستوى التقدم الذي وعد به ووجد نتائج سلبية تؤكد أنه لم يكن دقيقا في تقديراته السياسية ومؤهلاته الشخصية، أو أنه كان يعلم حدود أحلامه ويخدع مواطنيه، فقد جاء على حصان أبيض كمنقذ لإثيوبيا من الفوضى التي أوشكت على الدخول فيها وإذ به يوشك أن يتسبب في فوضى أشد قتامة.

امتلك طموحات بلا سقف، وبالغ في تصوراته بشأن توفير الأمن والاستقرار والوصول إلى دولة الرفاهية التي استمد منها الحزب الذي شكله واعتبره عربونا سياسيا يعكس قدرته الكبيرة على تغيير وجه إثيوبيا، فالازدهار أو الرخاء الذي سمي به الحزب وجاء على أنقاض تحالف الشعوب الإثيوبية الحاكم يقود البلاد إلى الخراب.

أفضى إنكار آبي أحمد للحقائق على الأرض إلى تجاهل توطيد التحالفات المحلية على أسس وطنية والانخراط في أخرى خارجية، وهو دليل على أن رهاناته انصبت على تطوير روابطه الإقليمية، فوقع اتفاقية سلام مع إريتريا قادته إلى توطيد علاقاته مع رئيسها أسياس أفورقي الذي شاركه الحرب على إقليم تيغراي.

آبي أحمد هل تغير، أم هي حقيقته التي لم يعرفها الكثيرون؟ وهل كان العالم الذي رفعه إلى عنان السماء كرجل سلام مخدوعا فيه أم هو الذي تغير عندما شاهد الواقع وتفاصيله الصعبة؟

مد بصره إلى الصومال في محاولة لاستغلال الفراغ الذي يعاني منه منذ سنوات، وسعى لاستمالة رئيسه محمد عبدالله فرماجو لتحقيق جملة من الأهداف الاستراتيجية المؤجلة، دقت جرس إنذار بأن الرجل يريد أن يكون رجل شرق أفريقيا القوي، غير أن التطورات الأخيرة ربما تجعله رجلها المريض.

بالغ في خصومته مع السودان ولم يعترف بأن أراضي الفشقة محتلة من قبل عصابات إثيوبية، وتبنى خطابا زاعقا لإرضاء جماعة الأمهرا التي أصبحت ركيزة يستند عليها في مواجهة خصومه، معتقدا أن الاعتماد عليها يكفي لردع تيغراي، إلى أن فوجئ باختلاط الأوراق بصورة قد تجرفه معها العمليات العسكرية الأخيرة في طريقها.

وبالغ أيضا في إدارته المتعنتة لملف سد النهضة مع مصر، ودخل في معادلة صفرية، فإما إقامة السد وفقا للقواعد التي يريدها أو قلب الطاولة على القاهرة، مستفيدا من الخلل في توازنات بعض القوى الإقليمية والدولية ونجح في صياغة منظومة من العلاقات حالت دون رضوخه لتقديم تنازلات في الأزمة.

لم تسعفه ورقة سد النهضة في الحشد الوطني الذي أراده، ولم تمكنه الوعود التي قطعها على نفسه من أن يكون المشروع مدخلا لتغيير حياة الإثيوبيين، فلا أحد يعلم حجم ما تم من إنجازات في أجواء تخيم عليها الحرب في اتجاهات مختلفة.

منعه الإنكار المستمر من تقديم معلومات دقيقة حول ما وصل إليه العمل في السد، ومنعه أيضا من تقديم كشف حساب بما تحقق وما لم يتحقق حتى الآن، فقد ترك الصورة غائمة كي تتسنى له العودة إليها متى أراد.

غابت سردية السد الوردية عن الجدل الداخلي في خضم الضجيج الذي أفضت إليه تطورات الحرب مع تيغراي، وخرج من المعادلة التي يمكن أن يعتمد عليها في خصومته معهم، لأنه لن يستطع المزايدة عليهم، فزعيم جبهة تيغراي ميلس زيناوي هو الذي وضع اللبنة الأساسية لهذا المشروع قبل نحو عشر سنوات.

هل تغير آبي أحمد أم هذه هي حقيقته التي لم يعرفها الكثيرون، وأدت إلى منحه جائزة نوبل للسلام؟ وهل كان العالم الذي رفعه إلى عنان السماء كرجل سلام في الإقليم مخدوعا فيه أم هو الذي تغير عندما شاهد الواقع وتعامل مع تفاصيله الصعبة؟

بالقطع لم يتغير الرجل، غير أن الأحداث التي مر بها كشفت معدنه السياسي، فقد حذر مقربون مبكرا من أنه دكتاتور في زي ديمقراطي، وأن طموحاته الإقليمية بلا حدود، لكن الغرب الذي منحه غطاء نوبل كان مغرما به في ظل بحثه عن نموذج أفريقي يعكس قيمه السياسية، يمكن التعويل عليه في تغيير وجه منطقة من أكثر المناطق جذبا وصراعا للقوى الدولية.

صعد آبي أحمد إلى حافة الهاوية عندما ضرب منظومة القيم الغربية في مقتل بانتهاكاته المتكررة في إقليم تيغراي، واستخدامه المفرط للعنف، وعدم اقتناعه بأن إثيوبيا تعيش على بركان هش من القوميات والجماعات والعرقيات، وهو ما يفرض عليه قدرا من المرونة والتنازلات السياسية، لأن إنكاره سوف يقوده إلى سقوط مريع.

لعب رئيس الحكومة الإثيوبية على وتر التناقضات الإقليمية والدولية، واعتقد أنه يمتلك خبرة في إدارتها وتوظيفها بالصورة التي تمكنه من تثبيت أقدامه في السلطة سنوات طويلة، وتجاهل أن من يثبت أو يعزل هو القبول به والرضاء عنه، ففرط في الليونة التي جاء بها ولجأ للقبضة الحديدية التي لم تسعفه في السيطرة على مقاليد الأمور.

خسر جزءا كبيرا من ركائزه في الداخل والخارج، وفقد رهاناته على القوى التي ارتكن عليها وكان متيقنا أنها كفيلة بحمايته من السقوط، ويجدف بمجاديف واهنة في الحرب التي تتسع رقعتها وقد تجعله يعلن استسلامه أو يواصل المعركة حتى نهايتها.

كرر آبي أحمد فصولا عديدة في مشاهد الحرب السابقة في أواخر أيام الرئيس الراحل منغستو هايلا ماريام، وقد يكرر النتيجة نفسها حيث دخلت جبهة تحرير تيغراي والجماعات المتحالفة معها أديس أبابا عام 1991، ولم يجد منغستو من ينقذه في الخارج بعد أن أحرق كل أوراقه في الداخل.

من المتوقع أن يواجه آبي أحمد سيناريو شبيها بمنغستو ما لم يسرع في تقديم تنازلات واضحة لخصومه وينتهز فرصة أن قوى غربية كبرى لا تريد لإثيوبيا الانهيار، لأن تصميمه على إنكار الواقع وما يحمله من تطورات ضده سوف يؤدي إلى غرقه وربما يغرق معه دولة تم الإعداد لها لتكون نموذجا واعدا في المنطقة.

السعودية وإيران، فهم آخر لعودة الحوار

علي الصراف
كاتب عراقي

في لحظة ما، بدا أن الحوار السعوديً – الإيراني يتعثر. وكان من الطبيعي له أن يتعثر ويظل متعثرا حتى تنقلب إيران على نفسها، فتكتشف سبيلا آخر للعيش مع نفسها بالكف عن "تصدير الثورة" واستيراد الفقر، وسبيلا آخر للتعايش مع الجوار من دون تهديدات ولا حروب ولا ميليشيات.

ولكن السبل إلى ذلك بدت مقطوعة. وظلت محاولات شقها تتطلب استعدادات دولية، بقينا نكتشف كل يوم أنها غير موجودة لدى الولايات المتحدة، أو أنها مجرد هراء كلامي يردده الإسرائيليون عن توجيه ضربة لإيران.

لقد استبعدت الولايات المتحدة خيار الحرب مع إيران. وكان ذلك كافيا، بمفرده، ليقول لإيران إنها تستطيع أن تواصل سياسات زعزعة الاستقرار في المنطقة.

وسواء تحقق تقدم في الملف النووي أم لم يتحقق، فالكل يفهم أنه لا سبيل لتعديل المسالك الإيرانية من دون مواجهة مباشرة. وعندما تغيب الاستعدادات لهذه المواجهة فإن على دول المنطقة أن تتدبر أمورها بنفسها مع إيران.

النووي الإيراني ليس مشكلة كبرى من مشاكل السعودية. إنه مشكلة الولايات المتحدة وإسرائيل. ومن الخير للسعودية أن تنأى بنفسها عن هذا الصراع وتبعاته وتكاليفه.

لسان حال الرياض يكاد يقول: حاربوا إذا شئتم أن تحاربوا أو ساوموا إذا شئتم المساومات. ومهما فعلتم فإنه لا يعنينا، لا أرضنا يفترض أن تكون مسرحا له ولا اقتصادنا يفترض أن يدفع ثمنه.

هذا هو أساس العودة إلى الحوار. الصورة الواضحة في الرياض هي أن الولايات المتحدة وإسرائيل لن تجدا في دول المنطقة حليفا لهما في خياراتهما حيال إيران. وطالما تم استبعاد خيار الحرب ولم تتوفر له مؤشرات تثبت جديته، ولا قدرته على فرض واقع جديد، فمن الخير للسعودية وباقي دول الخليج أن تنأى بنفسها عن المهاترات.

"إعادة الانتشار" في اليمن قدمت دليلا على قناعة واحدة، هي أن الحرب يجب أن تتوقف على عودةٍ إلى القسمة السابقة بين يمنين شمالي يطحن نفسه مع الحوثي، وجنوبي يطحن نفسه مع مشاكله.

والمعنى قد يبدو بالنسبة إلى الحوثي وإيران انتصارا. ولكن القول الآن هو: خذوه، بل ولتشبعوا انتصارات من هذا النوع.

ما يعني السعودية هو أمنها. فللمرة الأولى أصبح هذا الأمن قضية لا علاقة لها بالشراكة مع الولايات المتحدة.

وعندما تكون بلا حليف جدير بالثقة فإن السلام مع الأشرار خيرٌ من المجازفة بعون قد لا يأتي. وحتى إذا جاء فإن كلفته أبهظ من منافعه.

المعركة الدبلوماسية بين إيران والولايات المتحدة هي معركتهما، لا معركة أحد آخر. هذا ما كانت إدارة الرئيس الأسبق باراك أوباما قد اختارته عندما توصلت إلى اتفاقها السري مع إيران قبل توقيعه في العام 2015. وهي فعلت ذلك من دون أدنى تشاور مع "حلفائها" في المنطقة، رغم أنهم أول المعنيين به. وهذا ما ستعود "إدارة أوباما 2" لتفعله من جديد.

وسواء حققت إيران نصرا أو حققت الولايات المتحدة نصرا، أو توصل الطرفان إلى تقاسم "الانتصار"، فالقول في السعودية هو: مبروك عليكم، مرتين. الأولى، بالتوصل إلى نهاية نزاع. والثانية، بأن ترحلوا عن سمائنا بكل ما جلبتم من تنازعات كنا في غنى عنها.

تعود السعودية إلى الحوار مع إيران من موقع المهزوم. هذه وجهة نظر، قد تنفع حسن نصرالله في خطاباته الساخرة. إلا أنها لن تجلب الخبز للجياع في طهران ولا في بيروت.

تريد السعودية، كما دول الخليج الأخرى، أن تنأى بنفسها عن إيران بوسائل أخرى طالما لم تتوفر لغيرها من الوسائل أن تحقق الغاية منها.

وفي الواقع، فإن خروج إيران بانتصار معنوي قد يكفي ليكشف للولايات المتحدة أنها حليف لا تجدر الثقة به، وأنها نمر من ورق، وأن الاعتماد عليها مضيعة للوقت والمال. كما يمكن أن يكشف لإسرائيل ضعفها وقلة حيلتها، وأنها بالكاد تستطيع أن تستكلب على الفلسطينيين إذا شاءت استعراض العضلات. وهذا وضع يجعلها أفقر بكثير من أن تكون قوة جديرة بالاحترام.

ما هو مهم في عودة السعودية إلى الحوار مع إيران هو أنها تريد أن تتوصل إلى اتفاق سلام، يعيد إقامة علاقات حسن الجوار ويفتح أبواب التجارة والتعاون، ويضمن الكف عن التهديدات. ويفصل في الوقت نفسه بين مشكلات إيران مع الولايات المتحدة وإسرائيل عن مشكلاتها مع دول المنطقة.

بمعنى آخر، ألا تُؤخذ هذه الدول بجريرة التحالف الوهمي مع الولايات المتحدة؛ تحالف ثبت أنه عبء عليها أكثر مما يوفر من ضمانات.

لسان حال الرياض يكاد يقول: حاربوا إذا شئتم أن تحاربوا أو ساوموا إذا شئتم المساومات. ومهما فعلتم فإنه لا يعنينا، لا أرضنا يفترض أن تكون مسرحا له ولا اقتصادنا يفترض أن يدفع ثمنه

لقد عادت الرياض لتكتشف، ولو متأخرة، الحقيقة التي كانت تعرفها من قبل؛ وهي أن الولايات المتحدة لا تحارب إلا حروبها، وأنها لن تدافع عن أحد، وأنها تنظر إلى السعودية كسوق سلاح. وهو ما يستوجب نظرة سعودية مماثلة، تنزع الرهان عن الولايات المتحدة كحليف لتكون كما شاءت لنفسها أن تكون: أي مجرد سوق للسلاح، بين عدة أسواق، يمكن المفاضلة فيما بينها.

ليس مطلوبا من السعودية أن تخوض حربا ضد إيران، ولا حتى حربا بالوكالة. فالحرب في اليمن التي كان يمكن كسبها منذ عدة سنوات، تعرضت لإحباط تلو آخر عندما آثرت الولايات المتحدة أن تتراجع عن دعمها لتكون بمثابة حرب استنزاف؛ أي بالضبط كما أرادت لها طهران أن تكون، وكأن بينها وبين واشنطن لغة تخاطب تسمعها القلوب لا الآذان.

يمكن لإيران أن تهنأ بالحوثي وحسن نصرالله وميليشيات الفساد والاغتيالات في العراق. هذه ليست مشكلة السعودية؛ إنها مشكلة إيران مع نفسها، كما أنها مشكلة أتباعها مع شعوب بلدانهم.

سوف تعود السعودية إلى الجولة الخامسة من الحوار مع إيران ولكن ليس لمواصلة "الاستكشاف" وإنما لتوقيع اتفاقات سلام.

أُنظر إليها كيفما شئت. فعندما تقف على أرض الحقيقة، وعندما تتخلص من الأوهام، فإن ما قد يعتبره الآخر نصرا له وهزيمة لك، فإن العكس هو الصحيح.

أوهام القوة التي تُصدّر الثورة وتستورد الفقر، هي الهزيمة.